

إشكالية توظيف المنهج التجريبي في بحوث الإعلام والاتصال:

مقاربة تحليلية للتموضع النظري والتطبيقي

The Problematic of Employing the Experimental Method in Media and Communication Research: An Analytical Approach to Theoretical and Applied Positioning

د. دحمانى سمير

¹ جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة، الجزائر، s.dahmani@univ-dbkm.dz

تاريخ القبول: 2025/03/15

تاريخ الإستلام: 2025/01/21

ملخص:

يتناول هذا المقال إشكالية توظيف المنهج التجريبي في بحوث الإعلام والاتصال، حيث يبرز المقال المميزات المنهجية لهذا المنهج، كما يعالج المقال بعض العيوب والإشكاليات التي تعترض تطبيقه في بحوث الإعلام والاتصال، إضافة إلى مناقشة إمكانية تطبيق المنهج التجريبي في هذا التخصص العلمي، حيث خلص المقال إلى أن هذا المنهج يتمتع بمزايا منها الدقة في القياس مع إمكانية التحكم في المتغيرات الأمر الذي يساعد في تحليل وفهم تأثير مضامين وسائل الإعلام، كما تمثلت إشكاليات تطبيقه في ميدان الإعلام والاتصال في صعوبة التحكم في المتغيرات بسبب تعقد الظواهر الإعلامية، وأخرى أخلاقية متعلقة بخصوصية المشاركين في التجربة،
الكلمات المفتاحية: الإعلام، الاتصال، المنهج التجريبي، البحث العلمي، بحوث الإعلام والاتصال

Abstract:

This article addresses the issue of employing the experimental method in media and communication research. It highlights the methodological advantages of this approach and discusses some of the flaws and challenges associated with its application in media and communication studies. The article also explores the feasibility of applying the experimental method in this scientific discipline. The study concludes that this method offers advantages, such as precision in measurement and the ability to control variables, which aids in analyzing and understanding the impact of media content. However, the challenges in applying it to media and communication research include the difficulty in controlling variables due to the complexity of media phenomena, as well as ethical issues related to the privacy of participants in the experiment.

Keywords: Information; communication; experimental method; scientific research; Media and Communication Research

أ. مقدمة:

يعتبر تخصص علوم الإعلام والاتصال مجال بحثي خصب تكثر فيه المشكلات العلمية، وما يميز هذا الميدان هو أنه جديد نسبياً بالمقارنة مع ميادين علمية أخرى، حيث "فرض الإعلام والاتصال نفسه موضوعاً مستقلاً منذ ثلاثينيات القرن الماضي، لاسيما عند اكتشاف تأثيرات الدعاية والمعلومات على سلوك الأفراد والجماعات وعلى التماسك الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية إبان الحرب العالمية الثانية (سعد، 2017، ص67)، والأمر الثاني هو طبيعة المشكلات في هذا الميدان والتي تتميز بالآنية والجدة، وتتعلق أيضاً بالتنوع الكبير الذي تعرفه وسائل الإعلام والاتصال إضافة إلى المحتوى غير المحدود والمتنوع، وارتبط كل منهما بكل مجالات الحياة الإنسانية، وإذا كنا نتحدث عن التنامي الكبير الحاصل على مستوى الوسيلة والمضمون، فإننا نتحدث أيضاً عن أفراد يستخدمون ويتعرضون ويتلقون مختلف هذه المضامين عبر مختلف وسائل الإعلام، الأمر الذي يؤدي إلى أدوار وتأثيرات وآثار في المجتمع وجب فهمها وتفسيرها من أجل الوصول إلى الحقيقة ورفع الغموض عنها، وللوصول إلى ذلك كان لابد من القيام بعملية "البحث العلمي"، والذي يعتمد على متخلف الاختيارات المنهجية التي تمكن من دراسة مشكلة علمية ما حسب ما تحددها طبيعتها.

إن الطريقة العلمية في عملية البحث هي الوحيدة التي تمكن من دراسة المشكلة، والتي تتميز بإجراءات علمية محددة مضبوطة ومتربطة، وهي اختيارات منهجية تتحكم فيها طبيعة المشكلة في أغلب الأحيان، وفي أحيان أخرى تكون بدورها هي محل بحث من طرف الباحث لرؤية مدى نجاعتها في حل مشكلات معينة.

بعد المنهج التجريبي واحد من بين الاختيارات المنهجية في دراسة مشكلة علمية ما، وكثيراً ما أثبتت إشكاليات حول إمكانية استخدام هذا المنهج ومدى صلاحيته في بحث المشكلات الخاصة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، وهذا نظراً لطبيعة هذه العلوم والتي حسب زعمهم لا تقبل الإجراءات المنهجية الخاصة بهذا المنهج كضبط المتغيرات وعزل الظاهرة والسيطرة على الظروف المحيطة بها إضافة إلى الاختبار وإعادة الاختبار تحت الظروف نفسها، وهذا على عكس العلوم التجريبية، ولكن الأمر ليس بالسهل عند الحديث عن تخصصات العلوم الإنسانية، إذ يعد ميدان علوم الإعلام والاتصال من بين هذه التخصصات التي تكثر فيها المشكلات التي من الممكن استخدام معها المنهج التجريبي.

وعليه هذه الورقة هي قراءة تحليلية تناقش إشكالية توظيف المنهج التجريبي في بحوث الإعلام والاتصال، وهذا من خلال رؤية التوضع النظري والتطبيقي لهذا المنهج ضمن الاختيارات المنهجية الأخرى في دراسة مشكلة علمية ما تنتمي لهذا التخصص، ومن أجل ذلك يمكن طرح التساؤلات التالية:

1. ما الذي يميز المنهج التجريبي بالمقارنة مع المناهج العلمية الأخرى المطبقة في بحوث الإعلام والاتصال؟
2. ما أهم الإشكاليات المنهجية التي تعيق استخدام المنهج التجريبي في بحوث الإعلام والاتصال؟
3. ما حدود إمكانية تطبيق المنهج التجريبي في بحوث الإعلام والاتصال؟

أ. بحوث الإعلام والاتصال، المفهوم، الخصائص والمجالات:

تعتبر بحوث الإعلام والاتصال الإطار الموضوعي الذي يضم كافة الأنشطة والعمليات الإعلامية والاتصال، وهي الجهود المنظمة الدقيقة التي تستهدف توفير المعلومات عن الجمهور الموجه إليه الرسالة الإعلامية، وقنوات الاتصال ووسائله والتي تستخدم كأساس في اتخاذ القرارات وتخطيط الجهود الإعلامية والاتصالية، كما أن مهمتها تبدأ قبل بدء الجهود الإعلامية وتستمر باستمرارها، ونفس فعاليتها قياساً مرحلياً شاملاً، كما تشمل خدماتها كافة العناصر الداخلة في العملية الاتصالية، كالجمهور، الوسائل والرسائل، والمصادر والتأثيرات المستهدفة، بطريقة

متوازنة ومتكافئة، وهكذا فإنها تعنى بمخططي الاستراتيجيات الإعلامية في تحديد المدخلات الإعلامية الصحيحة، وفي التعرف على المخرجات المتحققة ومدى مطابقتها للأهداف المحددة سلفاً، مما يسهم في تقييم كفاءة الجهود الإعلامية وتطويرها وتنميتها باستمرار (حسين، 1995، ص 19)

تتعدد أهداف بحوث الإعلام والاتصال، حيث تتلخص فيما يلي: (عبد الحميد، 2000، ص 09)

1. صياغة المعرفة العلمية الخاصة بالحقائق الإعلامية وعلاقتها، والتطور المستمر لهذه المعرفة من خلال نتائج الدراسات المستمرة في المجالات المتخصصة أو المجالات الأخرى ذات العلاقة، وكذلك نتائج الممارسة المهنية والتطبيقية.
2. وصف حركة الظاهرة الإعلامية وعلاقتها واتجاهاتها والعوامل المحركة والدافعية لعناصرها، وعلاقات هذه العناصر ببعضها وتأثيراتها في إطار السياق الاجتماعي العام.
3. ضبط حركة الظاهرة الإعلامية والسيطرة عليها وتوجيهها وضبط علاقاتها وتأثيراتها.
4. التوقع بحركة الظاهرة الإعلامية والحقائق المتصلة بها، وصياغة التفسيرات الأولية لاتجاهات الظاهرة الإعلامية وعلاقتها في وجود العلاقات والتأثيرات والعوامل الدافعة أو المحركة لها.

يضاف إلى ذلك الأهداف الآتية: (ويمر و دومنيك، 2013، ص 09-10)

1. توفير صورة صادقة عن عملية الاتصال، بحيث تقدم معلومات عن انتشار الرسائل الإعلامية واستخدامها وتوزيعها وتأثيراتها.
2. توفير معلومات في سبيل زيادة فعالية وسائل الإعلام بالتعرف على العوامل المعنية لتوصيل رسائلها التنموية والتربوية والتعليمية إلى الجمهور المستهدف لتحقيق المشاركة المطلوبة.
3. توفير المعلومات الديموغرافية الضرورية عن طبيعة الجمهور المتلقي للرسائل الإعلامية.
4. تؤدي البحوث إلى تحسين مستوى الخدمات الإعلامية بما توفره من رجوع صدى ذي صبغة علمية ملائمة تتيح للقائمين بالاتصال فرصة لمراجعة رسائلهم الإعلامية وتطويرها من أجل وضع سياسات إعلامية ملائمة، وخاصة أن سياسة الإعلام في تطور دائم، والتخطيط لها عملية ديناميكية يجب أن تواكبها أبحاث مستمرة.

تتصف المشكلات والظواهر المرتبطة بعلوم الإعلام والاتصال بعدد من الخصائص والصفات ومن بينها الآتي: (عبد الحميد، 2000، ص 09-10)

1. أنها ذات طبيعة ديناميكية تتسم بالتغير والتدفق المستمر، لارتباطها بالعملية الإعلامية ذاتها التي تتسم بهذه السمات.
2. أنها ذات طبيعة اجتماعية حيث لا تعمل بمعزل عن حركة السياقات والنظم الاجتماعية الأخرى، وتتأثر بها.
3. تتسم العلاقة بين عناصرها أو بينها وبين الظواهر الاجتماعية الأخرى بالتأثير المتبادل، بحيث تحتاج ضبط العلاقة بين هذه العناصر أو بين الظواهر إلى جهد بحثي كبير لمعرفة اتجاهات التأثير أو التفرقة بين الأسباب

والنتائج على سبيل المثال تحديد اتجاه الأثر بين خصائص الدوق العام للجمهور المتلقين وخصائص المنتج الإعلامي يحتاج إلى جهد بحثي كبير لمعرفة السبب والنتيجة بين هذين العنصرين وهكذا.

4. ويرتبط بالسمة السابقة صعوبة التحكم في عناصر الظاهرة الاجتماعية والسلوكية وذلك لتأثير خصائص العملية الإعلامية أو الاتصال بال جماهير ذاتها، التي تتسم بضخامة حجم المتلقين وانتشارهم وتشتتهم وعدم تجانسهم بالإضافة إلى التغير المستمر في اتجاهات التعرض وغيرها من الأبعاد التي يصعب السيطرة عليها والتحكم فيها.

5. صعوبة عزل تفسير الظاهرة الإعلامية في مقدمات هذا التفسير، وبصفة خاصة تأثر ذاتية الباحث في التفسير واتجاهاته، مما يشير إلى تعدد التفسيرات الخاصة بالظاهرة الإعلامية الواحدة بتعدد الباحثين واتجاهاتهم، حيث يصعب الضبط الكمي الدقيق في دراسة هذه الظاهرة.

III. التميز المنهجي للبحوث التجريبية:

لقد تبلورت فكرة المنهج بالمعنى الاصطلاحي المتعارف عليه اليوم على يد فرانسيس بيكون Francis Bacon، ومن بعده جون ستيورات وديكارت وكلود برنار ودوركايم وجون ديوي وغيرهم، وثمة اتفاق اليوم على أن منهج العلم مصطلح يستخدم للإشارة إلى الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة مجموعة من القواعد العلامة التي تسير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة (بوحفص، 2016، ص29)، والمتعارف عليه أن هذه القواعد والخطوات تتبع عندما يحدد الباحثون أولاً مشكلة ما، ومن ثم يبحثونها باستخدام مجموعة من الإجراءات المحددة مسبقاً والمعروفة بالطريقة العلمية في البحث (ويمر و دومنيك، 2013، ص 83) والطريقة العلمية تكون:

1. موضوعية Objectivite: غير ذاتية أو شخصية وهي تستند إلى:

أ. المسلمات Postulats

ب. إدراك عام Portee Universelle

أي تصحيح وطرح الإدراك الخاطئ

2. الاختبار مرة ثانية وبطريقة صارمة وملاحظة نسقية

3. تعدد وجهات النظر ووضع المعطيات في سياقها

4. إجراء التحقيق وفق لمعايير صارمة:

أ. الحقيقة: قوانين ومبادئ عامة

ب. شرح العالم أو تفسيره بوضع الفرضيات أمام الاختبار للثبوت منها (سعد، 2017، ص 35-36)

والبحث التجريبي هو التسمية التي تطلق على تصميم البحث الذي يهدف إلى اختبار علاقات العلة والمعلول حتى يصل إلى أسباب الظواهر، وإذا صمم البحث التجريبي بعناية يصبح أداة قوية جداً في يد الباحث تساعد على اختبار فروضه بطريقة لا تعادلها طريقة أخرى، وقد يبدو البحث التجريبي بالنسبة لبعض الباحثين أكثر تصميمات البحوث تعقيداً، ولكن إذا فهم الباحث قواعده وأساسه فإنه يجده الطريقة الوحيدة التي يحص منها على إجابات تتعلق بأسباب حدوث

المتغيرات، ذلك أن البحوث التجريبية هي الطريقة الوحيدة لاختبار الفروض حول العلاقات السببية بشكل مباشر (أبو علام، 2014، ص 197)

ويمكن القول أيضا أنه "تنفرد التجارب بأنها الوسيلة الوحيدة التي يمكن على أساسها القول بوجود أو عدم وجود علاقة سببية بين المتغيرات، فعلى سبيل التجربة يمكن للباحث أن يقر ما إذا كان متغير يظهر نتيجة وجود متغير آخر، وعلى أساس التجربة أيضا يستطيع الباحث أن يقرر حدوث تأثير متبادل بين المتغيرين من عدمه وهذا بتحكمه الكامل والمضبوط في الموقف التجريبي (بوحفص، 2016، ص 248)

يقود القول بوجود علاقات سببية بين المتغيرات إلى وجود تداخل وخلط منهجي بين كل من المنهج التجريبي وبحوث العلاقات السببية المقارنة والبحوث الارتباطية، وكلها تقوم على مبدأ السبب والنتيجة، والإشكال المسجل هنا أنه "يخلط الباحثون أحيانا بين البحث السببي المقارن وكل من البحوث الارتباطية والبحوث التجريبية، ويعود الخلط بين البحوث السببية المقارنة والبحوث الارتباطية لعدم وجود معالجة تجريبية في هذين النوعين من البحث، إلا أن هناك فروقا واضحة بينهما، فالبحوث السببية المقارنة تحاول تحديد علاقة العلة والمعلول، أما البحوث الارتباطية فإنها لا تحاول ذلك، وقد يبدو من الصعب في البداية التمييز بين البحوث التجريبية والبحوث السببية المقارنة، فكلاهما يهدف إلى دراسة علاقات العلة والمعلول، وكلاهما يتضمن المقارنة بين المجموعات، إلا أن الباحث في البحوث التجريبية يصمم الظروف التي تشتمل على "السبب"، فهو يعتمد تصميم المجموعات بحيث تكون المجموعات مختلفة بالنسبة للمتغير المستقل (أبو علام، 2014، ص 234)، ولعل من بين ما يشكل اختلافا بين الباحثين فيما يخص بعض التسميات نجده مثلا عند سمير محمد حسين عندما فرق بين كل من البحوث السببية والبحوث السببية المقارنة، وهذا من حيث استخدام التجربة في حالة بحوث العلاقات السببية والاشتراك فيما بينهما من حيث الأهداف (حسين، 1995، ص 163)، وهذا يعتبر من بين الاختلافات المنهجية على مستوى التناول النظري، والأصل أن المنهج التجريبي يقوم على مبدأ بحث العلاقات السببية بين المتغيرات.

وعليه يمكن تمييز المنهج التجريبي عن باقي أنواع المناهج والبحوث، وهذا نظرا لما يميزه من إجراءات محددة تختلف تماما عن غيرها، حتى وإن تشابهت عند البعض ببحوث العلاقات السببية والتي تعتمد "أساليب قريبة أو شبيهة بالمنهج التجريبي، تسمح بتفسير العلاقات السببية أو الوظيفية بين المتغيرات والحقائق التي تدخل في تركيب الظاهرة، وتؤثر في بعضها البعض (عبد الحميد، 2000، ص 150)، والأكد أن ما يسجل من اختلاف وتداخل وعدم القدرة على الفصل يعتبر من الخلافات الكثيرة المسجلة في منهجية البحث العلمي على مستوى التناول النظري.

IV. قراءة في إجراءات المنهج التجريبي:

يهدف المنهج التجريبي "إلى قياس أثر أحد المتغيرات المستقلة أو أكثر على تابع محدد وذلك من خلال التحكم أو السيطرة على كافة العوامل المحيطة بالظاهرة موضوع التجربة (عبيدات وآخرون، 1999، ص 40) كما "يتضمن المنهج التجريبي كلا من المعالجة التجريبية والملاحظة، والتجربة في أبسط صورها تقوم على معالجة الباحث وتحكمه في المتغير المستقل، ثم ملاحظة استجابة المبحوثين (زغيب، 2009، ص 170) ويقوم المنهج التجريبي على كل من قاعدة: (مصطفى وآخرون، 2010، ص 27)

- أن العلاقة بين المتغيرين التابع والمستقل علاقة سببية.
- التحكم في جميع المتغيرات التي من المحتمل أن تؤثر على إجراء التجربة سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة.

- تصمم التجربة بناء على متطلبات الدراسة وأهدافها، وذلك من أجل اختبار المتغيرات تحت التجريب ومعالجتها، لمعرفة العلاقات السببية بينها.

يعتمد المنهج التجريبي حتى يتحقق على عناصر لا بد منها، وهي تتمثل في كل من:

- 1- الفرضية: وهي التي تبني بطريقة توحى بوجود أو عدم وجود علاقة بين كل من المتغير المستقل والمتغير التابع.
 - 2- المتغيرات: يعتمد المنهج التجريبي على وجود المتغيرات والمتمثلة في من المتغير المستقل التجريبي و المتغير التابع لإقامة دليل العلاقة السببية من خلال العملية التجريبية، ومن الممكن أن نجد أنواع أخرى من المتغيرات كالمتغير الدخيل أو الوسيط.
 - 3- التجربة: وهي تتمثل في المعالجة التجريبية، وهذا عند القيام الفعلي بإدخال المتغير التجريبي المراد قياس تأثيره على المتغير التابع.
 - 4- المجموعات التجريبية: تتكون من الأفراد المبحوثين الذين يتم اختيارهم بطريقة عشوائية أو غير عشوائية، والذين يخضعون للتجربة، تتمثل هذه المجموعات التجريبية في العادة في المجموعة التجريبية والمجموعة الضابطة.
 - 5- مكان التجربة ونوعها: نعني بذلك المكان الذي ستقام فيه التجربة وعل أساسها يمكن أن نصف التجربة إلى مختبرية (معملية) و تجربة ميدانية.
 - 6- الملاحظة: وهي أداة جمع البيانات عند القيام بالتجربة.
 - 7- أدوات التجريب: يمكن للباحث الاعتماد على أدوات معينة في عملية التجريب، وهذا الأمر يخضع لطبيعة المشكلة والفرضيات ونوع المتغيرات.
 1. إجراءات المنهج التجريبي:
- إجراءات المنهج التجريبي مميزة وعلمية أكثر من غيره من المناهج، حيث يتم إتباع مايلي: (ويمر، دومنيك، ص ص 425-428)

- 1- اختيار الوضع.
 - 2- اختيار تصميم التجربة.
 - 3- تفعيل المتغيرات.
 - 4- تقرير كيفية تناول المتغير المستقل.
 - 5- اختيار المبحوثين وتوزيعهم على حالات التجربة.
 - 6- القيام بدراسة أولية (استكشافية).
 - 7- إجراء (إدارة) التجربة.
 - 8- تحليل البيانات وتفسيرها.
 2. التصميمات التجريبية:
- نجد في العادة أن تصميم التجربة يستوجب عنصران أساسيان: (الجوهري و الخريجي، 1980، ص 256)
- 1- الجماعة التجريبية: وهي مجموعة الأفراد و المواد التي يتم التدخل فيها أو تغييرها على نحو ما.
 - 2- الجماعة الضابطة: وهي مجموعة الأفراد أو المواد التي تشبه المجموعة التجريبية في كل النواحي فيما عدا إحداث تدخل أو تغييرها.

وهناك من يرى أن التصميمات التجريبية تنقسم إلى "بحوث شبه تجريبية، وبحوث تجريبية حقيقية، والفرق الأساسي بين التصميم التجريبي الحقيقي والتصميم شبه التجريبي أن التصميم الأخير لا يلتزم بتقسيم مجموعات التجربة باستخدام التعيين العشوائي، بعكس التصميم التجريبي الحقيقي الذي يقوم على التعيين العشوائي للمجموعات" (أبوعلام، 2014، ص 219)

يتعلق التعيين العشوائي باختيار العينة من بين أفراد مجتمع البحث، أي يتعلق الأمر بإعطاء الفرصة نفسها للظهور لكافة مفردات مجتمع البحث الأصلي.

ويتفق مع هذا الطرح ويمر ودومينيك إذ يرى كل منهما أن التصميم شبه التجريبية وتصاميم تجريبية، ويندرج تحت هذين التصميمين أي التصميمات التجريبية وشبه التجريبية، أنواع من التصميمات، كتصميم المجموعة الواحدة مع اختبار قبلي وبعدي والذي يمكن اعتباره تصميم غير حقيقي أو شبه تجريبي، وتصميم المجموعة مع اختبار قبلي وبعدي. ومنهم من يقسم أنواع التجارب إلى كتجربة المجموعة الواحدة والمجموعتين و المجموعات بالتناوب (عبيدات وآخرون، 1999، ص ص 42-43)

وهناك من يعتبر أن الدراسات الميدانية هي دراسة شبه تجريبية تهدف لاكتشاف العلاقات والتفاعلات التي تجري بين المتغيرات (النعمي وآخرون، 2015، ص 212)، وحسب ذلك يمكن أن نعتبر أن أي دراسة ميدانية اعتمدت الفرضيات لكشف العلاقة بين المتغيرات هي دراسة شبه تجريبية وما أكثر هذا النوع من الدراسات.

V. أنواع البحوث التجريبية:

يصنف البحث التجريبي كما ذكر سابقا حسب نوع التصميم، كما يمكن أن يصنف حسب المكان الذي تجري فيه التجربة، قد يبدو الأمر حسب هذا التصميم منطقي ومقبول في العلوم التجريبية، ولكن في العلوم الإنسانية يطرح هذا التصنيف عدة إشكالات وهذا لخصوصية هذه العلوم بالمقارنة مع الأولى.

ويمكن أن نذكر في ذلك الأنواع الآتية: (النعمي وآخرون، 2015، ص ص 209-210)

1. البحوث المختبرية: حيث تعتبر بحث تجريبي يقوم الباحث بدراسة أثر متغير مستقل بواسطة العزل في موقف مصطنع لمعرفة تأثيره في المتغير التابع، وذلك بعيدا عن المواقف الطبيعية في الحياة الاعتيادية، والسيطرة على المتغير المستقل تحت ظروف يتم التحكم فيها بشكل دقيق.

وتعتبر هذه التجارب "الوسيلة الوحيدة التي يمكن على أساسها القول بوجود أو عدم وجود علاقة سببية بين المتغيرات، فعلى أساس التجربة يمكن للباحث أن يقرر ما إذا كان متغير معين يظهر نتيجة وجود متغير آخر، وعلى أساس التجربة يستطيع الباحث أن يقرر حدوث تأثير متبادل بين المتغيرين من عدمه، وهذا بتحكمه الكامل والمضبوط في الموقف التجريبي" (بوحفص، 2016، ص 248)

2. التجارب الميدانية:

وهي بحوث تجريبية تجري في مواقف حياتية حقيقية حيث يتعامل الباحث مع متغير مستقل واحد أو أكثر تحت ظروف مسيطر عليها بعناية قدر الإمكان، ودراسة تأثير هذا المتغير المستقل في المتغير التابع، هناك فرق بين التجارب المختبرية وبين التجارب الميدانية، فالضبط التجريبي مسيطر عليه بشكل أفضل في التجارب المختبرية "والباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية حين يستخدم هذا النمط لجمع البيانات فإنه يتزود بتقنيات وينظر إلى الظاهرة بمنطق الموضوعية، يتجرد الباحث في هذا النوع من البحوث بجمع المعلومات من الميدان لوصف الظاهرة أو السلوك كما يظهر

في حالته الطبيعية، فهو لا يحاول إثارة السلوك أو مراقبته أو حتى ضبط المتغيرات التي يمكن أن تتفاعل مع الظاهرة أو السلوك المدروس، كما يسمح البحث الميداني بإظهار الحياة الاجتماعية في حالتها الطبيعية وملاحظة بعض الأحداث والأفعال التي يمكن قياسها بأي طريقة أخرى كالاتجاهات وبعض الظواهر في الزمان والمكان" (بوحفص، 2016، ص 249)

إن الميزة الرئيسية للتجارب الميدانية هي صحتها الخارجية، حيث إن ظروف الدراسة تمثل إلى حد قريب الظروف الطبيعية لذا فالمبحوثون عادة ما يزودونا بصورة أكثر صدقا لسلوكهم الطبيعي دون أن يكونوا متأثرين بالموقف التجريبي (ويمر و دومنيك، 2013، ص 447)

وما يسجل بخصوص هذا النوع من التجارب هو " أن الباحث لا يستطيع أن يحكم كل المتغيرات الدخيلة، وهو ما يؤثر على دقة التجربة، وعلى مستوى الثقة في النتائج، وقد تتعرض التجربة لمعوقات خارجية لم تكن في الحسبان ولا يستطيع استبعادها أو استبعاد تأثيرها، علاوة على ما تثيره من تحفظات أخلاقية تتعلق بما إذا كان من الجائز أو اللائق أخلاقيا تعريض الأفراد للتجارب والحصول على معلومات عنهم دون علمهم أو موافقتهم (الجمال، 2002، ص 194)

٧١. المنهج التجريبي في بحوث الإعلام والاتصال:

يركز قدر كبير من دراسات بحوث الإعلام والاتصال في الجزائر على الدراسات الاستطلاعية والوصفية، وهذا ما لوحظ من خلال مسح عدد من بحوث التخرج على مستوى الماجستير والدكتوراه، حيث أنها اعتمدت على الفرضية وعلى اختبار العلاقات السببية وعلى الأسلوب الإحصائي في اختبار هذه الفرضيات، كما أنها لم تذكر تصنيف هذه الدراسات والتي يظهر أنها بحوث العلاقات السببية، ومن بين كل الدراسات لا توجد دراسة واحدة اعتمدت المنهج التجريبي في البحث والذي يعبر صراحة عن الإجراءات الخاصة بهذا النوع من المناهج، ولم تعتمد على التصميمات التجريبية في ذلك، ولا يمكن اعتبارها تجارب مختبرية وميدانية حسب الإجراءات المعتمدة والمذكورة، على الرغم من أن البحوث التجريبية تعبر عن مرحلة متقدمة من البحث مرتبطة بالوفرة في المعلومات حول المشكلة العلمية أي متعلقة بالمستوى المعرفي ومدى وجود تراكم حول المشكلة التي يقوم الباحث بدراستها.

إن اختبار الفرضية لا يعتبر بحث تجريبي بالضرورة، بل يجب أن يظهر ذلك من خلال إجراءات معينة يختص بهذا هذا المنهج وترتكز في الأساس بوجود التصميمات والمجموعات التجريبية.

ومن خلال استطلاع الدراسات السابقة تبين أنها تعتمد على وجه التحديد على المنهج المسحي، وتصنيف هذه الدراسات مازال في مرحلة الاستكشاف ومرحلة الوصف، رغم تكرار دراسة المشكلة الواحدة أكثر من مرة، كمسح جمهور وسائل الإعلام، ومسح اتجاهات الرأي العام ومسح أساليب الممارسة الإعلامية، ويضاف إلى ذلك اعتماد تحليل المضمون كمنهج أو كأداة،

ينظر إلى الفرق بين التجارب الميدانية والتجارب المختبرية على أنه ليس بأكبر، إذ " يمكن تمييز المنهجين بتواجد أو غياب قواعد وإجراءات السيطرة على الظروف، وكذلك وعي الأفراد (المبحوثين) أو عدم وعيهم بكونهم خاضعين للدراسة، وإذا حافظ الباحث على سيطرة محكمة على سلوك الأفراد، وتم وضع الأفراد في موقف يدركون أنه مختلف جذريا عن حياتهم الاعتيادية، فمن الأفضل أن يوصف الموقف بأنه تجربة مختبرية، ومن ناحية أخرى إذا كان الأفراد (المبحوثون) يؤدون وظائفهم - بشكل رئيسي- بنفس أدوارهم الاجتماعية في حياتهم الاعتيادية ويتدخل ضئيل من الباحث أو بإعادة بناء

الظروف (التي هم يعملون بها)، من المحتمل أن يكون الموقف أقرب إلى التجربة الميدانية، وأساسا فإن الاختلاف بين التجارب المختبرية والتجارب الميدانية هو اختلاف في الدرجة (ويمر و دومنيك، 2013، ص 446)

في حالة التجارب المخبرية فالأمر واضح، أما في الحالة الثانية نجد كما تقدم سابقا التصاميم شبه التجريبية ومثال ذلك "تصميم الاختبار القبلي والاختبار البعدي للمجموعة الضابطة غير المتكافئة، يستخدم هذا الأسلوب من قبل الباحثين الافتراضيين (الذين يضعون افتراضات)، الذين يدرسون معنويات الموظفين في محطة الإذاعة، يتم تعريض إحدى المجموعتين للتعامل (المعالجة) التجريبي وتقارن بمجموعة مشابهة لم يتم تعريضها لذلك وتتم مقارنة الاختلافات للاختبار القبلي والاختبار البعدي لتقرير إذا كان لحالة التجربة تأثير (ويمر و دومنيك، 2013، ص 444)

شرح كل من ويمر ودومنيك التجارب الميدانية من خلال مجموعة من الأمثلة والتي كانت عبارة عن دراسات وأبحاث، وهذا من أجل تمييزها عن التجارب الحقيقية وشبه التجريبية، ومن بين هذه الدراسات دراسة لباحث أراد "معرفة ماذا يفعل الناس في أسبوع من دون التلفزيون، تم توظيف عينة من (51) شخصا بالغاً ودفع لكل واحد منهم (4) دولارات يوميا كي لا يشاهدوا التلفزيون لمدة أسبوع كامل، وقبل حرمان هؤلاء الباحثين من التلفزيون، طلب تان منهم مشاهدة التلفزيون بشكل طبيعي لمدة أسبوع وأن يسجلوا يوميات مفصلة بكل نشاطاتهم، ومن بداية الأسبوع التجريبي زار مساعدو تان منازل الباحثين ولصقوا قوايس التلفزيون الكهربائية لتقليل إغراء استخدامها، ومرة أخرى طلب منهم تسجيل نشاطاتهم خلال الأسبوع، وللمحافظة على بعض السيطرة على التجربة، قام المساعدون بزيارة منازل الباحثين على فترات خلال الأسبوع للتأكد من أن التلفزيون لم يشاهد، وبعد أسبوع تم جمع اليوميات التي استكملت أثناء أسبوع الحرمان، وقورنت بأسبوع مشاهدة التلفزيون الاعتيادية، وقد اكتشف تان أنه عندما يحرم الباحثون من التلفزيون فإنهم يتحولون إلى الراديو والصحف للترفيه والمعلومات، وكذلك فإنهم يميلون إلى الانخراط في المزيد من النشاطات الاجتماعية مع الأصدقاء وعائلاتهم (ويمر و دومنيك، 2013، ص 450)

يتبين من خلال استعراض هذه الدراسة أنها نادرة ومنعدمة في جامعاتنا، حتى وإن اعتمدت الفرضيات والقول باختبارها من طرف الباحث، ولكن مثل هذا الضبط من ناحية إتباع الإجراءات نفسها غير موجود على الأقل بالنسبة للدراسات التي تم الاطلاع عليها على مستوى بحوث الإعلام والاتصال.

والأمر لا يرجع إلى غياب المشكلات التي يمكن اعتماد المنهج التجريبي معها بل الإشكال يتحمله الباحث، إذ نجد أن الكثير من الدراسات كان من الممكن أن يعتمد معها المنهج التجريبي لكن اعتمد فيها على منهج آخر، والأمر له علاقة بنوع من التهرب من اعتماد هذا المنهج من طرف الباحثين، نظرا لعدة مشكلات تفرض عليهم تجنب الاعتماد على المنهج التجريبي. إن المشكلات العلمية التي يمكن أن يعتمد معها المنهج التجريبي كثيرة ولا حصر لها، سواء تعلق الأمر بأثر وسائل الإعلام وكذلك أثر المضامين والمحتويات الإعلامية المختلفة، وغيرها من المواضيع التي يتلاءم معها هذا المنهج.

VII. عيوب المنهج التجريبي في بحوث الإعلام والاتصال:

يعتبر بعض الباحثين أن التقنية التجريبية ليست مثالية، فلها ثلاثة عيوب رئيسية: (ويمر و دومنيك، 2013، ص ص 424-425)، وهي كل من الاصطناعية والمتعلقة بالظروف المصطنعة للتجربة خارج الإطار الواقعي والحقيقي، ثانياً يتعلق الأمر بتحيز الباحث حيث من الممكن أن تتأثر التجربة باختيار أفراد كل من المجموعة التجريبية أو الضابطة، ثالثاً النطاق المحدود للمنهج التجريبي والذي لا يمكن استخدامه مع بعض الدراسات التي تتطلب إجراءات معقدة نظر لضخامة عدد أفرادها.

- كما يمكن ذكر بعض العيوب الأخرى المتعلقة بهذا المنهج في بحوث الإعلام والاتصال:
- صعوبة الحصول على تعاون أفراد عينة الدراسة فيما يتعلق بضبط الأنماط السلوكية للأفراد تحت التجربة، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى صعوبة تعميم نتائج التجربة ومقابلتها مع الفرضيات التي قامت عليها التجربة، كما أن هذا النوع من البحوث يحتاج إلى مهارات وخبرات عالية المستوى من الناحية العلمية المرتبطة بمدى اتصاف من يقومون بها بالموضوعية اللازمتين لإنجاح التجربة (عبيدات وآخرون، 1999، ص ص41-42)
 - ضعف المتغيرات المستقلة ليس من حيث القياس ولكن من حيث الضبط، فالتجارب المخبرية هي مواقف اصطناعية وجدت من أجل هدف محدد، وبالتالي فالنتائج تكون غير طبيعية (بوحفص، 2016، ص248)
 - كما أن عملية الضبط البيئي للتجربة أثارت ومازالت تثير الكثير من الجدل بين أساتذة مناهج البحث والباحثين، حيث يرى البعض أن ضبط البيئة التي تجرى فيها التجربة، يجعل التجربة تجرى في بيئة صناعية بعيدة ومنعزلة عن الواقع الذي تحدث فيه الظاهرة، والتفاعل الطبيعي بين المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة، وأنه يترتب على ذلك أن نتائج البحث لا يمكن تعميمها على البيئة الطبيعية (الجمال، 2002، ص167)
 - في حالة القيام بالتجارب الميدانية يصعب السيطرة على مختلف المتغيرات الدخيلة وعلى الظروف المحيطة بالمشكلة.
 - إشكالية اختيار الأفراد المبحوثين عشوائيا والذي يعتبر الفاصل بين البحوث التجريبية الحقيقية وغير الحقيقية.
 - إشكالية التجانس بين الأفراد في حالة المجموعات.
 - من الممكن أن يكون " لضم عامل آخر في التصميم يزيد من عدد المبحوثين اللازمين للتجربة ويزداد أيضا من الوقت والطاقة اللازمين لإكمال التجربة (ويمر و دومنيك، 2013، ص433)
 - من الصعب أن يقوم الباحث بتكرار التجربة نفسها وبالظروف والدقة نفسها .
 - يعتبر التجريب على أفراد دون علمهم من العيوب الأخلاقية التي توجه إلى هذا المنهج.
 - مشكل تصنع الأفراد المبحوثين عند علمهم أنهم محل دراسة وتجريب مما يؤثر على نتائج الدراسة.
 - من الصعب القيام بالمنهج التجريبي خاصة في المجتمعات التي ترفض أن تكون محل دراسة أو التي يطل منها إجابة على تساؤلات مثل المجتمع الجزائري.
 - إن المنهج التجريبي يحمل بصمات علوم الطبيعة، حيث يعتبر هو منهجها النموذجي، أما استعماله في العلوم الإنسانية فهو محدود لأسباب متنوعة، أولا لأن ظواهر العلوم الإنسانية لا تحتل القياس دائما كما يتطلبه تحليل النتائج التجريبية، ثانيا لأن موضوع الدراسة وهو في هذه الحالة الكائن البشري لا يمكن إجراء التجارب عليه إراديا (أنجرس، 2006، ص104)
 - إن هذه العيوب تجعل الباحثين في علوم الإعلام والاتصال يتجنبون هذا المنهج، حيث ينظر إليه على أنه يمثل تحد في غاية الصعوبة، وإلى غاية كتابة هذه الأسطر تندر الدراسات التي اعتمدت المنهج التجريبي، رغم قابلية الكثير من الأبحاث المنجزة للبحث والدراسة باعتماد هذا المنهج.
- VIII. خاتمة:

رغم نقص الدراسات التي تعتمد المنهج التجريبي في بحوث الإعلام والاتصال في الجزائر، إلا أنه ليس من الصعب أن يخوض الباحث تجربة البحث اعتمادا على هذا المنهج، وهذا لما يتميز به من دقة وموضوعية متعلقة بإجراءات قياس العلاقات السببية وخاصة مع حاجة هذا التخصص لهذا النوع من الدراسات، حيث لازالت الأبحاث في مستوى

الاستكشاف والوصف، كما يوفر اعتماد هذا المنهج تصاميم تجريبية تتيح للباحث إمكانية التحكم في المتغيرات ضمن سياقات تجريبية اصطناعية تمكن من فهم الظواهر المختلفة، ومع ذلك هناك بعض الإشكاليات التي تواجه تطبيق هذا المنهج في الدراسات الإعلامية والاتصالية، ولعل أبرزها صعوبة التحكم في المتغيرات، وعدم القدرة على تمثيل الواقع الحقيقي بسبب البيئة المصطنعة، وأخرى مشكلات أخلاقية تتمثل في خصوصية المشاركين، وعلى رغم من هذه الإشكاليات فإن تطبيق المنهج التجريبي في ميدان الإعلام والاتصال له آفاق واعدة على مستوى فهم تأثيرات وسائل الإعلام المختلفة وغيرها، وهذا ما يمثل ضرورة ملحة تفرض توظيف هذا المنهج من أجل فهم الظواهر الإعلامية والاتصالية.

الإحالات والمراجع:

- سعد حسين، براديغمات البحوث الإعلامية، الاستومولوجيا، الإشكاليات، الأطروحات، (بيروت: دار المنهل اللبناني، 2017)
- مصطفى صلاح الدين محمد وآخرون، خطوات البحث العلمي، (مصر: جامعة الدول العربية، 2010)
- النعيمي عبد العال محمد وآخرون، طرق ومناهج البحث العلمي، (الأردن: مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، 2015)
- بوحفص عبد الكريم، أسس ومناهج البحث في علم النفس، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2016)
- أبو علام محمود رجاء، مناهج البحث في العلوم النفسية والتربوية، (القاهرة: دار النشر للجامعات، 2014)
- نو الفقار زغيب شيماء، مناهج البحث والاستخدامات الإحصائية في الدراسات الإعلامية، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2009)
- الجمال محمد راسم، مقدمة في مناهج البحث في الدراسات الإعلامية، (القاهرة: مركز جامعة القاهرة للتعليم المفتوح، 2002)
- الجوهري محمد، الخريجي عبد الله، طرق البحث الاجتماعي، (القاهرة: مطابع سجل العرب، 1980)
- عبيدات محمد وآخرون، منهجية البحث العلمي، القواعد والمراحل والتطبيقات، (عمان: دار وائل للطباعة والنشر، 1999)
- ويمر روجر، دومنيك جوزيف، مدخل إلى مناهج البحث الإعلامي، تر: أبو أصبع صالح، منصور فاروق، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2013)
- حسين محمد سمير، بحوث الإعلام، دراسات في مناهج البحث العلمي، (القاهرة: عالم الكتب، 1995)
- عبد الحميد محمد، البحث العلمي في الدراسات الإعلامية، (القاهرة: عالم الكتب، 2000)
- أنجرس موريس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، تدريبات عملية، ترجمة: صحراوي بوزيد وآخرون، (الجزائر: دار القصة للنشر، 2006)
- Saad Hussein, Paradigms of Media Research, Epistemology, Issues, Theses, (Beirut: Dar Al-Manhal Al-Lubnani, 2017).
- Mustafa Salahuddin Mohamed et al., Steps of Scientific Research, (Egypt: Arab League University, 2010).
- Al-Naimi Abdul Aal Mohamed et al., Methods and Approaches of Scientific Research, (Jordan: Al-Warraq Publishing and Distribution Foundation, 2015).
- Bouhafs, Abdel Karim. Foundations and Methods of Research in Psychology. (Algiers: Directorate of University Publications, 2016).
- Abu Alam, Mahmoud Raga'a. Research Methods in Psychological and Educational Sciences. (Cairo: University Publishing House, 2014).
- Zughaib, Shaimaa Dhulfiqar. Research Methods and Statistical Uses in Media Studies. (Cairo: Egyptian Lebanese House, 2009).
- Al-Jamal, Mohammed Rasim. Introduction to Research Methods in Media Studies. (Cairo: Cairo University Center for Open Education, 2002).
- Al-Johari, Mohammed, and Al-Khariji, Abdullah. Methods of Social Research. (Cairo: Sijil Al-Arab Press, 1980).
- Obeidat, Mohammed, et al. Scientific Research Methodology: Rules, Stages, and Applications. (Amman: Dar Wael for Printing and Publishing, 1999).
- Wimmer, Roger, and Dominick, Joseph. Introduction to Media Research Methods. Translated by Saleh Abu Asba and Farouq Mansour. (Beirut: Center for Arab Unity Studies, 2013).
- Hussein, Mohammed Samir. Media Research: Studies in Scientific Research Methods. (Cairo: Alam Al-Kutub, 1995).
- Abdel Hamid, Mohammed. Scientific Research in Media Studies. (Cairo: Alam Al-Kutub, 2000).
- Angers, Maurice. Scientific Research Methodology in Human Sciences: Practical Exercises. Translated by Sahraoui Bouzid et al. (Algeria: Dar Al-Qasbah for Publishing, 2006).